لسنغ والإسلام والتسامح (2 من2)

كتاباته قدوة للمسلمين ولغيرهم ودعوة للتحرر من الثنائيات المتعارضة وتأكيد القيم المشتركة العابرة للحدود

لسنغ فحص قبل كل شيء ثقافته المسيحية... والمسلمون واليهود في مسرحيته مستنيرون ومتسامحون

سيلفيا هورش*

السيدة سيلفيا هورش هي باحثة ألمانية شابة نالت أطروحتها للماجستير عن «العقلانية والتسامح، معالجة لسنج للإسلام»، التي نشرت في كتاب صدر عن دار إرغون في فورتسبورغ صدى طيباً في الأوساط الأكاديمية والأوساط الاجتماعية الألمانية المهتمة بدعم الأصوات المتعقلة الداعية للتفاهم بين البشر من ثقافات متعددة، وتحجيم التيارات المتعصبة الداعية للعداء والكراهية.

وقد دعيت السيدة هورش لإلقاء محاضرات تتعلق بموضوع الكتاب في أماكن مختلفة من ألمانيا، والمترجم استمع لهذه المحاضرة التي هي عملياً تقديم للكتاب في أحد هذه الأماكن (جامعة برلين الحرة) وطلب منها إعطاءه حق الترجمة، وتفضلت بذلك مشكورة.

يعد الشاعر والمسرحي والمفكر الألماني الكبير لسنغر (1729 ـ 1781) واحداً من الأصوات القليلة في العصر المسمى «عصر التنوير» الذي عالج مشكلة «التسامح» عبر الدعوة إلى قراءة يسيرها الاحترام للأديان والثقافات الأخرى لا الانحياز المسبق. علاقة عصر التنوير مع موضوع التسامح هو بخلاف وجهة النظر الوردية التي يقدمها عنه عادة المثقف العربي علاقة هي غالباً غير مشرفة، والبعد العنصري الذي لم يتم التركيز عليه كان ثغرة كبرى «للمنورين» جعلتهم عملياً ونظرياً يناقضون مفاهيمهم عن الحرية العقلية والتسامح الديني منذ أن يخرج الموضوع عن حدود الثقافة الغربية.

وتسلط السيدة هورش الأضواء على هذا الجانب من خلال أعلام تنويريين من نوع فولتير وكانط.

المحاضرة التالية ألقيت في ندوة دراسية في الأكاديمية الإنجيلية أرنولدهاين.

وضعت الأسماء غير العربية بأحرفها الأصلية إلى جانب وضعها بالأحرف العربية ما عدا الأسماء الشهيرة جداً.

دور الإسلام في المداولات حول التسامح:

في الفكر التنويري جاءت بعد النظرة البراغماتية الخالصة للتسامح نظرة مضمونية، ومن المتوجب علينا على كل حال أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذا التحول كان منحصراً بالأحرى في دائرة صغيرة من الفلاسفة والعلماء. وما كان مفهوماً على وجه العموم من «التسامح» يوضحه بصورة جلية القاموس العام لتسدلر الصادر عام 1745: ليس التسامح Zedlers Universal Lexicon «(...) شيئاً آخر غير أن يحاول المرء التعامل مع الآخر بروح سلمية وأن لا يمنع أحد غيره حقوقه الطبيعية وأن يتولى المرء بكل لطف دحض الآراء الخاطئة التي تقال على منابر الوعظ، والتي يكتبها القائمون على هذه المنابر، وأن يجتهد المرء بكل تواضع وتعقل لتعليم غيره ما هو أفضل (...)».

إن التسامح يخدم هنا في نهاية الأمر غرض التبشير، وإنه لمن السهل أن نلمس أن هذا الفهم للتسامح بعيد كل البعد عن لسنغ، فما كان يهم لسنغ لم يكن ببساطة «التحمل» وهذا يعني سلوكاً تكتيكياً خالصاً، وإنما كان يهتم بإيجاد أساس من نظرية المعرفة لمطلب التسامح. إن الاقتناع بأن البشر لا يستطيعون الوصول إلى الحقيقة المطلقة هو عند لسنغ أمر حاسم الأهمية، وما هو ممكن هو الاقتراب من الحقيقة فقط، وبهذا يصبح مطلب التسامح مؤسساً على نظرية المعرفة من خلال الفرق بين المعرفة المحدودة للبشر والحقيقة المطلقة التي لا يمكن الوصول إليها.

وحيث ان الحقيقة المطلقة يمكن الاقتراب منها فقط يرى لسنغ أن على الإنسان بصورة مضطردة أن يجتهد للوصول على معرفة أعمق. والذي يتوهم في نفسه أنه امتلك الحقيقة يفوت على نفسه إمكانية اقتراب إضافي منها. وهذا الجانب من فهم لسنغ للحقيقة يجد تعبيراً عنه في موضع شهير يكثر الاستشهاد به من كتابه «الرد Duplik» الصادر عام 1778: «إن ما يصنع قيمة الإنسان ليس هو الحقيقة التي يملكها أو يظن أنه يملكها، وإنما الجهد الصادق الذي بذله في الوصول إليها. (...) لو أن الله وضع الحقيقة كلها في يمينه ولم يضع في شماله إلا الدافع الذي يحث دوماً على السعي إلى الحقيقة وحتى لو تضمن هذا أن أظل على الأبد أخطئ ثم قال لي: اختر! لاخترت يسراه وقلت له متوسلاً: أعطني يا أبي! إنما الحقيقة هي لك وحدك!».

بالنسبة للسنغ ليس المؤمن بما لا نؤمن به هو بالضرورة على خطأ. إن من الواجب التسامح معه بسبب الإمكانية الكامنة للحقيقة أو الميل إلى الحقيقة الذي يمتلكه. ومن هنا لا يتحمل لسنغ الرأي المخالف فقط بل يرى في الجدل معه ضرورة لدعم جهود الذات الهادفة إلى الوصول على المعرفة، ولا يكون هذا الموقف ممكناً بدون احترام الآخر والاعتراف به، وهنا يظهر لسنغ تطابقاً في الرأي مع غوته ومبدئه المعروف: «إن التسامح يجب أصلا أن لا يكون موقفاً مؤقتاً فقط، إذ يجب أن يقود إلى الاعتراف. إن التحمل إهانة».

(غوته يفهم هنا التسامح Toleranz بمعناه الحرفي، إذ ان المصدر « tolerare» هو في الأصل مفهوم سلبي يمكن أن يطلق عليه «التحمل» أو «الصبر على الأذى». وعند الحديث لاحقاً عن فهم لسنغ للتسامح فإن المقصود هو طبعاً شيء آخر: إنه موقف الاعتراف والاحترام).

الإسلام يلعب في تدخل لسنغ لصالح التسامح دوراً مهماً، وهذا ما بدا واضحاً في إعلانه عن كتاب «تاريخ العرب» حين يتصدى للحكم المسبق القائل إن المسلمين برابرة وفي كتابه «إنقاذ هيرونيموس كاردانوس» حيث شدد على توافق الإسلام مع العقل في وجه الرأي الشائع الزاعم أن الإسلام لاعقلاني. وثمة مثال آخر مهم في هذا السياق هو كتابة يقدّم فيها لكتاب «مقتطفات شخص لم يسمّ» الذي هو مقتطفات في نقد الكتاب المقدس والوحي من تأليف هرمان صموئيل رايماروس Hermann Samuel Reimarus. الكتابة اسمها «من آدم نويسرن. بعض الأخبار موثوقة المصدر» Von Adam Neusern. Einige authentische Nachrichten وتاريخها عام 1774، وفيها يقف مؤيداً لإعادة الاعتبار إلى منتم للطائفة اليونيتارية (Unitarier طائفة مسيحية لا تؤمن بالتثليثم.) تحول إلى الإسلام في القرن السادس عشر. آدم نويسرن وصم بخيانة الأمة المسيحية وبأنه امرؤ عديم الأخلاق غارق في الرذيلة لأنه غير دينه وهرب إلى القسطنطينية. وعلى العكس أظهر لسنغ بصورة جلية أن خطوة كهذه يمكن أن تكون على غاية المنطقية بالنسبة إلى يونيتاري إن نظرنا إليها من منظور علم العقيدة.

واهتم لسنغ أيضاً بالفلسفة الإسلامية وأتاح لها أن تحفزه: لقد قرأ الرواية الفلسفية حي بن يقظان لأبي بكر بن طفيل من القرن الثاني عشر والتي صارت معروفة في أوروبا باسم «فلسفة التعلم الذاتي» Philosophus Autodidactus. وبالتوازي مع هذه الرواية كان ثمة كتابة غير منشورة في حياته «حول نشوء الديانة الموحى بها» ber die Entstehung der geoffenbarten Religion وهي كتابة تعود إلى العام 1763. إن التلقي المثمر لعلم كلام الإسلام ولتاريخه يظهر نفسه أخيراً في مسرحية ناثان.

ناثان الحكيم ومثّل الخاتم

هنا نأتي إلى مسرحية لسنغ التي أيد فيها التسامح كما لم يفعل في أي عمل آخر. وهي مسرحية «ناثان الحكيم» الصادرة عام 1779.

المكان هو القدس والزمان هو القرن الثاني عشر، زمن الحروب الصليبية وصلاح الدين الذي هو أيضا أهم شخصيات المسرحية، وهو يعرض في المسرحية كحاكم متسامح متنورّ. ناثان هو تاجر يهودي فقد قبل سنين كثيرة كل عائلته في مجزرة معادية للسامية قام بها مسيحيون. ومع ذلك فإنه بمعونة إلهية قادر على أن يتغلب على كراهيته ويتبنى فتاة صغيرة مسيحية اسمه ريشا Recha.

وتبدأ المسرحية بعودة ناثان من سفر فيعلم أن فارس معبد منتم إلى جماعة من الجماعات التي شنت الحروب الصليبية، قد أنقذ ابنته المتبناة من حريق شب في منزله. وفارس المعبد نفسه كان صلاح الدين قبل مدة قصيرة قد عفا عنه فقد كان أسيراً وكان المفروض أن يعدم مثل غيره من فرسان المعبد، ولكن وجهه ذكّر صلاح الدين بأخيه أسد الذي ذهب إلى أوروبا منذ سنين عديدة وقد مات. فارس المعبد يحب ريشا ويطلب يدها من ناثان، ولكن عند ناثان شك معين ويريد أن يعرف أولاً من هو فارس المعبد بالضبط. وبالفعل يتضح بعد تشابكات كثيرة أن ريشا وفارس المعبد أخوان وأنهما ابن وبنت أخي صلاح الدين. وثمة مشهد كبير للتعارف من جديد وفي النهاية تقف على خشبة المسرح عائلة واحدة كبيرة فيها لا تلعب الاختلافات في الدين أي دور. والتوجيه المعروف الموجه للإخراج في الختام يقول: «تنزل الستارة والجميع يعانق بعضهم بعضاً».

وفي مكان مركزي من المسرحية يقص ناثان مثّل الخاتم: صلاح الدين يسأله عن الدين الأفضل، ويتملص ناثان من هذا السؤال المفخخ بأقصوصة: كان عند رجل خاتم فيه قوة سحرية «يجعل حامله محبوباً عند الله والناس»، وهذا الخاتم منذ أجيال يتوارث فيعطيه الأب لأحب أبنائه إليه، ولكن الرجل الآن عنده ثلاثة أبناء يحبهم بنفس المقدار وبهذا تنشأ مشكلة. ولهذا هو يكلف من يصنع له خاتمين آخرين مقلدين ويعطي كل واحد من أبنائه خاتماً.

وبعد موت الرجل يبتدئ الشجار طبعاً حول مسألة ما هو الخاتم/ ما هو الدين الأصلي. ويذهب الأخوة إلى قاض يقرر بداية أنه هو أيضاً لا يستطيع أن يعرف الخاتم الأصلي، وبالتالي الدين الأصلي، فيعطي الأخوة الثلاثة النصيحة التالية: كل واحد منهم يجب أن يؤمن أن خاتمه هو الأصلي، وعلى كل منهم أن يضع الرهان على أن يبرهن أن خاتمه هو الأصلي بأفعاله الخيّرة وسلوكه الحسن. وهو يقول:

ليراهن كل منكم
أن القوة السحرية في خاتمه ستظهر فجأة!
فلتأت هذه القوة مع الرقة
مع الاحتمال الصادق ومع البر
مع الاستسلام العميق لله Mit innigster Ergebenheit in Gott
للمساعدة! وعندما تتبدى القوة السحرية
عند أحفاد أحفادكم:
عندها سأدعوكم عبر آلاف آلاف السنين
مرة أخرى أمام هذا الكرسي حيث سيكون
رجل جالساً على هذا الكرسي هو أحكم
مني وسيتكلم.

إن نصيحة القاضي هذه تتضمن استعارتين من القرآن:

الاستسلام لله: ثمة صيغة مركزية في المسرحية لا نصادفها فقط في نصيحة القاضي ولكن نصادفها في مواقع أخرى وهي صيغة «الاستسلام لله» وعند البحث في صيغ المسرحية وجدت روابط مسيحية ويهودية مع هذه الصيغ، لكن الباحثون اقتضاهم الأمر 217 سنة بالضبط ليكتشفوا أن الاستسلام لله ليس شيئاً آخر غير الترجمة الحرفية للكلمة العربية «إسلام» (فقط عام 1996 وجه الانتباه فريدريش نيفونر Friedrich Niew?hner في مقال في صحيفة فاتس Faz لهذه الحقيقة).

إن هذا الأمر مذهل حيث أنه فقط في التراث الإسلامي توجد هذه الصيغة ومن الممكن البرهان على أن معنى كلمة «إسلام» كان معروفاً عند لسنغ ففي دفتر ملاحظاته نجد: «الإسلام هو كلمة عربية تعني أن يسلم المرء نفسه للإرادة الإلهية». وكان بإمكان لسنغ أن يقرأ في الكلمة التمهيدية لترجمة سيل للقرآن: «وهذا الدين سماه (محمد) باسم الإسلام، وهي كلمة تعني التسليم Resignation أو الخضوع أو الاستسلام لأمر الله وخدمته، وهو اسم (...) الدين المحمدي الأصلي».

وبالتالي يمكن لنا أن ننطلق من أن لسنغ استعمل هذه الكلمة على خلفية المعنى الذي تأخذه في الإسلام.

وفي القرآن أيضاً موازيات للتوصية بالسلوك الحسن بدلاً من الشجار حول الحقيقة، وللرهان على السلوك الحسن ثمة مواز في القرآن أيضاً، ولم يستغرق الأمر طويلاً حتى اكتشف: ففي عام 1850 يجد القارئ في جريدة «دير شتوتغارتر مورغن بلات فور غبلدته ليزر النص القصير الذي عنوانه «الفكرة الرئيسية لناثان لسنغ في القرآن». ولكي لا يجد المؤلف (مغفل الاسم) نفسه عرضة للشك بأنه يدافع عن القرآن يصف أولاً بالتفصيل كم هو هذا الكتاب مزعج، ولكن بعدها نجد: «ثمة مواضع قليلة لامعة (...) ومن أبرزها جزء من الآية 52 من السورة الخامسة حيث نجد بعد كلام شديد الاحترام لشريعة موسى وإنجيل المسيح على لسان الرب ومن ثم على لسان الرسول القول:» بعد هذا تأتي الآية 48 من سورة المائدة «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون».

وقالت الجريدة أيضاً: «من لا يتذكر ناثان لسنغ عند قراءة هذا أو على الأقل فكرته الأساسية في نهاية مثل الخاتم؟».

لقد كان لسنغ يستطيع أن يجد أصل مثل الخاتم في الأدب، فقد كان موجوداً عند بوكاشيو Boccaccio أما نصيحة القاضي فهي إضافته الخاصة التي استوحاها من القرآن بشكل واضح:

يقول القرآن: «ولو أراد الله لجعلكم أمة واحدة». فتعدد الأديان هو إرادة الله، مثل تعدد الخواتم التي أرادها الأب ـ فمن له إذاً الحق في أن يحرم الأديان الأخرى من حق الوجود أو يستطيع تقديم السبب المبرر لذلك؟

وجانب الامتحان مهم أيضاً، والقرآن يقول: «ولكن ليبلوكم فيما آتاكم». بالنسبة للإخوة الثلاثة فإن وجود الخواتم الثلاثة هو اختبار: هل سيتصارعون أم سيعاملون بعضهم معاملة الأخ لأخيه؟ هل سيستحقون محبة أبيهم؟.

وبعد هذا «فاستبقوا الخيرات إلى الله» ـ وفي نصيحة القاضي: «ليراهن كل منكم ـ/ أن القوة السحرية في خاتمه/ ستظهر فجأة». فالتسابق على الخير هو السبيل لكي يثبت المرء أن دينه هو الدين الحق. وثمة مثل في الإنجيل أيضاً عن هذا: في الإصحاح السابع من إنجيل متى 7:20 في أثناء الحديث عن التفريق بين الأنبياء الحقيقيين والأنبياء الكذبة: «من ثمارهم تعرفونهم». أن العقيدة الصحيحة تظهر من خلال السلوك الحسن فهذا تعليم أساسي في الإسلام، ففي حديث نبوي مشهور: «الدين معاملة».

وفي النهاية فإن الجواب عن الدين الصحيح موجود في الآخرة: «إلى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» ـ «عندها سأدعوكم عبر آلاف آلاف السنين/ مرة أخرى أمام هذا الكرسي حيث سيكون/ رجل جالساً على هذا الكرسي هو أحكم/ مني وسيتكلم».

إن مثل الخاتم لا يدعو بهذا إلى اللامبالاة حيال الأديان كلها. وليس التسامح نتيجة لإفقاد السؤال عن الحقيقة أهميته، فالإخوة لا يطلب منهم إسقاط حقهم في أن يعتقد كل منهم أنه على حق، وعلى العكس فالقاضي يطلب منهم أن يثبت كل منهم على قناعته: «فليؤمن كل واحد أن خاتمه هو الأصلي III، 7. ما يطلبه هو التخلي عن الشجار غير المجدي حول الحقيقة وبدلاً من ذلك إثبات الذات في السلوك العملي.

في ناثان لا تجري المطالبة بالتسامح فقط عند الرجوع بكثرة إلى علم العقيدة الإسلامي واليهودي وإلى التاريخ، وإنما بالأحرى يحقق التسامح بمعنى الاحترام والاعتراف بالآخر على المستوى المضموني. لقد اشتغل لسنغ على عناصر من الأديان التوحيدية الثلاثة ومن المأثورات في مسرحيته، وبالذات من المأثورات اليهودية والإسلامية. (من المعروف أن المسيحية هي الدين الذي يعامل على النحو الأسوأ من قبل شخصية البطريرك).

ناثان الحكيم في القرن الحادي والعشرين

ما الذي تستطيعه مسرحية مثل ناتان أن تقوله اليوم؟ إن رسالة ناثان التي هي قرابة البشر جميعاً عبر الحدود والأديان وإمكانية التفاهم السلمي بينهم كثيراً ما أعلن موتها.

على خلفية تجربة حربين عالميتين والهولوكست والحرب الأهلية في البلقان وأخيراً تجربة إرهاب الإسلامانيين المتطرفين وما أعلن على إثره من «حرب على الإرهاب» شملت إلى الآن بلدين يظهر الاستخلاص أن لسنغ برسالته التسامحية يطلب أشياء أكثر من اللازم، وقد عبر عن هذا مخرج مسرحي أخرج عروضاً كثيرة لناثان الحكيم حين قال بعد هجمات 11 سبتمبر: «إنه تسامح عظيم ولكنه تسامح لا يمكن أن يعيش. هذه هي المأساة!».

وثمة مشكلة أخرى في استقبال ناثان هي أن مفهوم لسنغ للتسامح همش عبر إساءة الاستعمال العام: «عالم الدراسات الإسلامية نافد كرماني Navid Kermani يقول عن هذا: «إن مفهوم لسنغ للتسامح امتصه في البداية الوعي البرجوازي العادي ولاحقاً امتصته الكنائس بحيث لم يبق منه شيء وفقد كلياً طابعه التحريضي الناقد للتسلط».

لقد فرغ مفهوم التسامح من مضمونه في سياق هذا التطور وابتذل، ومما يعبر عن هذا عرض مسرحية ناثان في جوقة برلين Berliner Ensembel عام 2002.

إن لسنغ في زمنه وضع قبل كل شيء ثقافته المسيحية ـ الغربية الخاصة أمام المرآة بنيّة نقدية. و «الآخرون»، اليهود والمسلمون، هم في هذه المسرحية مستنيرون ومتسامحون، أي الصورة الإيجابية المعاكسة لثقافته الخاصة.

على العكس من ذلك عرض الجوقة البرلينية الذي يبدو المسلمون فيه كشخصيات شرقية من الحكايات لها مظهر صبياني: بتعبير نقاد الجرائد فإن صلاح الدين «يتقافز هنا وهناك كصبي مغرور مدع زين نفسه بنهايات لحية مدببة» ويتبختر مثل صورة كاريكاتورية شاحبة لقائد يرتدي حذاءين زرقاوين.

على مدخل خشبة المسرح أحضرت رموز للديانات الثلاثة: الصليب للمسيحية ونجمة داوود لليهود والطائرة المدنية للمسلمين. وبينما يظهر المسلمون على الخشبة كشخصيات حكايات شرقية فإن صورة الخشبة تحث المشاهد على تبني صورة للإسلام كدين عنف.

إن عنصرين أساسيين من صورة الإسلام القديمة تظهر بهذا في عباءة جديدة: اللاعقلانية والعنف.

وثمة شيء آخر يلفت الانتباه في هذا الإخراج: في مسرحية لسنغ المتنور ناثان يهودي شرقي، أما في إخراج بيمان Peyman فيظهر أوروبياً ويدخل المسرح في زي غربي. إن تعامل لسنغ النقدي مع ثقافته الخاصة تحول إلى مصادقة على تفوقها الأخلاقي والعقلي.

هذا التبديل لقصد لسنغ هو أمر مستهجن بما يكفي لكن ثمة ما يستحق الاستهجان أكثر وهو أنه لم يكد يلفت الانتباه رغم كل النقد الذي وجه للإخراج، فقد أثنت الجرائد على عرض ناثان (تقول جريدة دي فلت Die Welt مقرظة «إنه عرض لامع ويكفي دور البطولة الذي أداه بيترفيتس Peter Fitz) متّقف حربوق بلطافة».

أما كرماني فقد أوضح إشكالية عرض ناثان هذا بجلاء:

«على حين أن لسنغ كتب ضد لاتسامح الغرب جاء إخراج بيمان ليجعل التسامح أمراً غربياً. فحامله ليس «منهم» كما هو عند لسنغ ولكنه واحد «منا». كل الشخصيات في العرض وضعت في الشرق المدهش ما عدا واحدة فقط ألبست لباساً غربياً مثل لباس الغربي كلاوس بيمان Claus Peyman وهي شخصية ناثان الحكيم. ويمكن للمرء أن يسميه ناثان الأبيض (تلاعب على الألفاظ: «الحكيم» بالألمانيا هو der Weise و«الأبيض» هو der Wei?e). وفي جميع الأحوال يمكن للمرء أن يذكر العنصرية القابعة بشكل غير واع في أساس هذا الإخراج.

هل انعدام الإدراك لقصد لسنغ هذا (وهو ليس موجوداً في عرض الجوقة البرلينية فقط) هو أيضاً عرض من أعراض التميع العام لمفهوم التسامح؟

لقد وصف مفهوم التسامح عند لسنغ بأنه موقف احترام واعتراف: إنه ليس مجرد تحمل لقناعات الآخرين ولكنه تفاعل جاد وبناء معهم، فهل تحقق نماذج التسامح الآن هذا المطلب أم هي لا زالت بعيدة عنه؟ في هذا الموضع تطرح المقارنة بين مفهوم لسنغ للتسامح ونموذج يبدو أنه يلاقي نسبياً موافقة واسعة حالياً نفسها.

الفيلسوف الفرنكفورتي راينر فورست Rainer Forst يدافع عن «مخطط احترام Respekt-Konzeption» يؤسس الاحترام على قاعدة أنه «فضيلة العدالة ومطلب العقل».

وفي هذا النموذج يستند التسامح على «شكل مؤسس أخلاقياً للاحترام المتبادل للأفراد أو المجموعات المتسامحة مع بعضها». إن الاعتراف بالآخر في ذاتيته Eigenheit وغيريته Andersheit يفهم كإلزام أخلاقي. وبمفهوم الاحترام يتحدد موقف الاعتراف الذي طالب به لسنغ ومن بعده غوته أساساً للتسامح. فهل الأهمية المركزية للاحترام علامة على أن مفهوم لسنغ للتسامح يجد اليوم اعترافاً عاماً؟

إن يورغين هابرماز Habermas شدد في أحد الخطابات كثيراً على المنافع العملية لوصية التسامح:

«إذا نظرنا للأمر من وجهة وظيفية فإن التسامح الديني عليه أن يستوعب التأثير الاجتماعي الهدام لاختلاف في الآراء ما زال قائماً بلا هدنة. إن الرابطة الاجتماعية التي تربط المؤمنين مع مؤمنين من عقيدة أخرى ومع غير المؤمنين كأعضاء في مجتمع علماني واحد يجب أن لا تتمزق». «(متى يجب علينا أن نكون متسامحين؟» 2002) هدف موقف التسامح هنا هو تأمين السلام الاجتماعي، ولربما كان هذا أيضاً هو كل ما يمكن للمرء أن يطلبه واقعياً أما لسنغ فهو في جميع الأحوال قد ذهب أبعد من ذلك: صحيح أن الجانب الخاص بتأمين السلام الاجتماعي يلعب دوراً عند لسنغ أيضاً (وهكذا يعرقل مطلب التسامح في نصيحة القاضي أيضاً أن يتصارع الإخوة) ومع ذلك فإن مفهومه للتسامح يتجاوز هذا فهو لا يعني عند لسنغ السماح بوجود قناعات أخرى فقط ولكنه يعني أيضاً ترك الذات تتفاعل مع هذه القناعات. وبحسب هذا الفهم فإن التسامح هو أساس لتفاعل مثمر مع الأفكار والمفاهيم الأخرى: إن تفهم المنظورات الأخرى يتيح نمو المعرفة وبهذا يمكن للاشتغال بالأديان والثقافات الأخرى أن يقود إلى الاغتناء.

مؤمناً أن هذا ينطبق على الإسلام أيضاً وقف لسنغ في الفكر التنويري وحيداً. من يرون اليوم في الإسلام إغناء هم أقل من أي وقت مضى، أما وجود عدة ملايين من المسلمين في أوروبا فينظر إليه بالأحرى على أنه مشكلة، وفي هذا الوقت يشكل الإسلام بوضوح التحدي الأكبر أمام التسامح الأوروبي.

في ألمانيا ثمة خلافات دائمة منتظمة في المسائل المتعلقة بممارسة المسلمين لدينهم كمسألة اللحوم المذبوحة وبناء المساجد وارتداء غطاء الرأس. وليس نادراً أن تجتمع في هذه الجدالات كل المخاوف المرتبطة مع وجود أقلية ينظر إليها بنظرات تتراوح ما بين النظرة إلى «الغريب» والنظرة إلى «الخطر».

وفي فرنسا كما في ألمانيا يتبدى لنا في سياق «الجدال حول غطاء الرأس» الراهن أن الممارسة الاجتماعية والسياسية لا يوجهها مفهوم للتسامح بأنه «احترام»، الأمر الذي كان من شأنه ـ كما يقول فورست أيضاً ـ أن يقود إلى التسامح مع غطاء الرأس في المدرسة (وهذا يعني احترامه). وفي الفترة الأخيرة على خلفية العلاقات السياسية يبدو أن ما يدعى مجازاً الصراع الحضاري، الذي لا يتبدى في «الجدال حول غطاء الرأس» فقط، يزداد حدة. إن الإرهاب الذي يزعمون أن دوافعه دينية وتصاعد الصراع في الشرق الأوسط والحديث المستجد عن «الحروب الصليبية» ـ كل هذا ظواهر حولت «صراع الحضارات» الذي تنبأ به صموئيل هنتنغتون إلى ما يبدو كأنه حقيقة واقعة، وقوت الميل إلى التفكير في الثقافات ككتل قائمة على هويات صافية غير متغيرة. وفقاً لهذه النظرة يقف «الإسلام» و«الغرب» أمام بعضهما أنظمة مغلقة بدون إمكانية للاتفاق. وفي كلا الجانبين يعمل ممثلون لهذه الرؤية للعالم بعناية على الإبقاء على الصورة العدائية للطرف الثاني.

إن التصور القائل بهوية وحيدة البعد وقابلة للفصل الجلي عن سواها لم يتم دحضها فقط بعد أن تطورت العولمة والهجرة وأصبح ينظر إليها على أنها بناء تخيلي، ذلك أن الثقافات خضعت دوماً لعمليات تحول، وتطورت عبر التبادل ثنائي الاتجاه، ولكن الظاهر أن «العودة إلى الوعي» بما هو «خاص» ووضع الحدود له التي تفصله عن الآخر في عصر الحداثة قد أصبح حاجة هدفها ترسيخ اليقين بالهوية التي أصبحت مهتزة. إن هذا البناء الأصولي للهوية هو في التيارات الإسلامانية التي تريد تنقية الإسلام مما هو غريب ظاهرة ملاحظة تماماً كما هو في أجزاء من المجتمعات الغربية التي يقال فيها إن «الثقافة القائدة» يجب أن تحمى من الانهيار.

في هذا الموقف يشكل لسنغ قدوة للمسلمين ولغير المسلمين الذين يشترط من أجل أن يقوموا بحوار متكافئ أن يتحرروا من طرق التفكير الجوهرانية، وإن وضع الثنائيات المتنافية أمام بعضها مثل ثنائية الغرب العقلاني مقابل الإسلام اللاعقلاني المتعصب، أو في الجانب الإسلامي وضع ثنائية الإسلام الأخلاقي مقابل ثنائية الغرب اللاأخلاقي يجب أن يحل محله تبصر بالتعقيد والاختلاف في كل ثقافة وفي الدين نفسه.

وعلاوة على ذلك يجب اكتشاف القيم المشتركة العابرة للحدود التي ترسمها اختلافات الدين والثقافة، وأن يتلاقى البشر في المرتبة الأولى لا كمنتمين لأديان مختلفة ولكن كبشر، أو بحسب تعبير ناثان: «هل المسيحي واليهودي هو مسيحي ويهودي / قبل أن يكون إنساناً؟» II.5».

ترجمة: محمد شاويش

* باحثة ألمانية شابة نالت أطروحتها للماجستير عن «العقلانية والتسامح، معالجة لسنغ للإسلام»

الشيخ محمد أبو الخير زكي بدوي.. رحلة ثمانين عاما في البحث عن إسلام متنور

ابراهيم درويش

■ آخر مرة رأيت فيها الاستاذ الشيخ الدكتور زكي بدوي (1922 ـ 2006) كان الاسبوع الماضي في الكلية الاسلامية التي انشأها عام 1986، وقال لي انه يحضر لمؤتمر عن القدس سيعقد في الكلية، وطلب مني الحضور مع ممثل فلسطيني، وهم القدس كان من الهموم التي شغلت العالم والداعية الكبير، ففلسطين لم تغب عن اهتماماته، وظل طوال السنوات يذكرني بمشروع كبير كان يطمح لتحقيقه وهو نشر صور وتعليقات المتطرفين اليهود والمستوطنين الذين كان يعترض على استخدام الصحافة لتسميتهم بالمستوطنين، بل تعبير المغتصبين والسالبين للارض الفلسطينية، ورغم المحاولات لم افلح في تحقيق ما اراده الشيخ، حيث قال لي بعد ذلك انه تلقى وعودا من باحثين فلسطينيين للعمل على اتمام المشروع. فقد كان يؤمن ان اهم وسيلة لمحاجة هؤلاء والتصدي للصورة السلبية عن الاسلام، بنشر اقوال المتطرفين الذين تحدثوا عن العرب كعقارب وافاعٍ وغير ذلك مما افرزه الخطاب القيامي المتطرف هذا.

زكي بدوي الذي رحل صباح الثلاثاء 2006/1/24 وهو يقارع ويتحدث في المؤتمر الثالث للمصارف الاسلامية، في فندق «ميلينيام» في وسط لندن، كان وجها اسلاميا معروفا، فرض احترامه على كل اتباع الديانات الاخر، ورفض موقعا اقل من موقع ممثلي الاديان في الفضاء البريطاني، فقد كان يحرص على الظهور وهو الرجل الحديث والمتأنق في لباسه ولغته، بزي الازهر الذي كان طالبا فيه ومدرسا لاكثر من ربع قرن. ولكن بدوي كان سجلا من التاريخ يمشي على الارض، حيث ذرع قارات العالم، محاضرا ومناقشا اطروحات جامعية، ومشاركا في المؤتمرات، ومحادثا رؤساء الدول، وقد كان نسيج وحده، ينافح ويكافح غير آبه بما يقوله عنه المعترضون الذين لم يوفروا اي شيء في قاموسهم، وكان يعرف انهم يصفونه بـ «العم توم» اي تابع البيض، وانه متحرر في الفتوى، يحاول ان يرضي السلطات، ويتعاون مع الحكومة البريطانية. وكان يشير الى هذه الاتهامات ضاحكا في مقابلاته الصحافية. اتقن زكي بدوي اكثر ما اتقن لغة الحديث للاعلام، وكان صاحب ذاكرة حادة مثيرة للاعجاب، وفي الشهر الماضي حل على الكلية ضيف وعالم لم تكن لغته الانكليزية تساعده، فوقف الشيخ زكي الثمانيني، ليعيد ما قاله المحاضر حرفا حرفا بلغة انكليزية صافية، اثارت اعجاب العلماء الشباب.

واهمية زكي بدوي الذي تعددت اوصافه، باعتباره، المعمر الحكيم، او القائد غير الرسمي لمسلمي بريطانيا، البالغ عددهم 1.6 مليون نسمة تنبع من انه كان واثقا من هويته الاسلامية، غير مستعد للتنازل عنها وفي اي موقع ولهذا نال الاحترام والتقدير، وحتى عندما كرمته الملكة اليزابيث بمنحه وسام الفارس، رفض التخلي عن مصريته، فعاش في بريطانيا قرابة النصف قرن مصريا حقيقيا لم تتلوث لهجته المصرية، وكان اول من اخترع او استخدم مصطلح «الاسلام البريطاني»، حيث قال «اذا تحدثنا عن اسلام مصري او باكستاني او اندونيسي، فلماذا لا يكون لدينا اسلام بريطاني»، واضاف ان الجيل الاول من المهاجرين المسلمين الذين جاؤوا الى بريطانيا لاسباب متعددة، حملوا معهم ثقافاتهم الريفية واستخدموها في فضاء غربي، وهذا الجيل الذي اختفى اخذ معه ثقافته، ولهذا فالجيل الثالث من المهاجرين او ابنائهم درسوا في بريطانيا وتشربوا الثقافة الغربية، ولهذا فهويتهم ستظل هوية بريطانية اسلامية، اذ انه لم يكن يرى اي تعارض بين هوية المواطن المسلم الدينية وانتمائه وولائه للتراب البريطاني. واكثر ما كان يهم الدكتور بدوي هو غياب ما اسماه «الثقافة الفكرية الاسلامية» القادرة على التعامل مع الواقع المعاصر، حيث كان يرى ان السياسيين، ممن يمثلون الاقلية المسلمة أساؤوا للاسلام والمسلمين، لان معرفتهم الدينية القليلة لم تكن تؤهلهم لفهم النص الاسلامي والمصادر الدينية، ولهذا كانوا ينزعون للتشدد امام مرونة العالم المتمرس في النص وتنزيلاته على الواقع. وعندما كان مديرا للمركز الاسلامي في ريجينت بارك شعر بنوع من الدهشة والاستغراب ان ايا من الائمة القادمين الى بريطانيا لا يعرفون الانكليزية او اي شيء عن محمول الثقافة الغربية، ولهذا سعى الى سد النقص في هذا المجال عندما اعد برنامج تدريب للأئمة في كليته الاسلامية، في غرب لندن، وفي الشهر الماضي قام بتخريج اول فوج من الدعاة من الجنسين بحضور عدد من العلماء والناشطين. كان مدافعا عن المرأة ويحرص ان تكون في كل المنتديات، وثار عليه الكثيرون عندما اصدر بعد هجمات لندن في 7/7 فتوى قال فيها ان خلع المرأة حجابها حالة تعرضها لاعتداء مسموح به بمقاييس الشريعة، ولم يكن في فتواه اي شيء غريب او خارج الفهم الديني، الا ان توقيتها لم يعجب الكثيرين ممن هاجموه، ولكن الفتوى وحياة بدوي العملية، هي صورة الشاب الازهري «المتمرد»، فهو كما يقول وبفعل التربية الازهرية نشأ متمردا، لا يتقن فن التبجيل او اضفاء الهالات، مع أي كان، رئيسا او انسانا عاديا، ومع كل ما حققه في حياته الا انه كان الرجل المتواضع الذي يتلقى الجميع بابوة خاصة وحقيقية، ويجد للجميع ما يعطيهم حتى الاطفال كانوا يجدون عنده هدية او التفاتة خاصة. عايش بدوي احداثا كثيرة، فقد كان من جيل الاخوان المسلمين الاوائل، والتقى بالشيخ حسن البنا (1906 ـ 1949) وكان يحدثنا كيف ناقشه واختلف معه، وعندما قامت ثورة 23 يوليو في مصر، كان اسمه على قوائم المطلوبين، وعاش فترة من الزمن بدون جواز المصري قبل ان يسترده، كما زار في عام 1953 الباكستان والتقى الداعية ابو الاعلى المودودي (1903 ـ 1979)، وذكر لنا بدوي م